العقيدة وتجلياتها السياسة في فكر ابن تومرت

أ. أحمد شارف

جامعة زيان عاشور – الجلفة

الملخص:

ترتكز سياسة ابن تومرت ارتكازاً وثيقاً على عقيدته الدينية، هذه العقيدة التي تباينت المواقف حولها، ومن خلال نظرة في تراث ابن تومرت تبين أنّ عقيدة ابن تومرت ترتكز على ثلاثة ركائز هي: التوحيد، الإمامة، والخروج. وظف هذه المرتكزات لتنفيذ مشروعه السياسي، فكيف ذلك؟

ركز ابن تومرت على مسألة التوحيد، فجعله شعاراً واسماً للدولة، هذا التوحيد الذي يرى فيه أنه يقوم على التنزيه للذات الإلهية، وهو يختلف عن توحيد المرابطين الذي يقوم على "التجسيم" –في نظره– موظفاً منهج المتكلمين، لكن ابن تومرت في تنزيهه تمادى إلى أن وصل إلى تنزيه فيه تعطيل، على طريقة المعتزلة.

وانطلق ابن تومرت من منطلق التوحيد لإدراكه تجنب علماء المرابطين الخوض في مسائل التوحيد بمنهج المتكلمين، فأراد أن يهدم الدولة من أسس الاعتقاد التي لم يعترض عليها أيٌّ من علماء المتكلمين الأشاعرة الذين سبقوه.

الركيزة الثانية في عقيدة ابن تومرت هي القول بأن الإمامة أصل من أصول الدين، وأن الإمام معصوم، وادعى إثر ذلك أنه الإمام المعصوم والمهدي المعلوم، وفي هذه المعتقدات والادعاءات يتبين أن ابن تومرت كان يعتنق عقيدة الشيعة، ويتمثل تجاربهم التاريخية، واستطاع أن يؤثر في أوساط السذج الحانقين على دولة المرابطين خاصة من قبيلة مصمودة، فكون منهم جيشاً حمل لواء الخروج عن السلطان.

الركيزة الثالثة في عقيدة ابن تومرت هي الخروج عن السلطان القائم، والانحلال من بيعته، وحمل السلاح ضده، فاستغل ابن تومرت تعدد الجبهات التي كان المرابطون يقاتلون فيها، فقاد جيشه في معارك دموية ضد المرابطين، انتهت –بعد موته– بانتصار الموحدين.

ولم يمض قرن على تأسيس دولة الموحدين حتى دبّ الضعف فيها، وتنكر خلفاؤها لهذه المرتكزات، واعترفوا بكذبها.

www.manaraa.com

الملخص بالانجليزية:

Article Summary: **The Creed and its Political Representations in the Thought of Ibn Tomart**

Ibn Taymart's doctrine is based on his religious faith, a doctrine that has different positions around it, and through a look at the legacy of Ibn Tomart showing that the doctrine of Ibn Tomart is based on three pillars: Tawheed, Imamah, and Exodus. He used these pillars to implement his political project.

Ibn Tumert focused on the question of Tawheed, making it a motto and a name for the state. This unification, which he sees as based on the self-indulgence of the divine, differs from the unification of Almoravid, which is based on "the embodiment" That he arrived at the disobedience in it, in the manner of the Mu'tazil.

The son of Tomert came out of the standard of unification because he realized that the Almoravid scholars avoided the issues of monotheism by the approach of the speakers. He wanted to destroy the state from the foundations of belief, which was not challenged by any of the scholars of the poets who preceded him.

The second pillar in the doctrine of Ibn Tomart is to say that the Imamate is the origin of the fundamentals of religion, and that the Imam is infallible, and claimed that the Imam is infallible and known Mahdi, and in these beliefs and allegations it turns out that the son of Tomert was embracing the doctrine of the Shiites, and their historical experiences, and could affect the media The gulls who hugged the Almoravid state, especially from the tribe of Masmouda, and formed of them an army to carry out the banner of the Sultan.

The third pillar in the doctrine of Ibn Tomart is the departure from the existing Sultan, and the disintegration of the sale, and bear arms against him, the son of Tomert took advantage of the multiplicity of fronts where the Almoravids were fighting, and his army in bloody battles against Almoravid, ended - after his death - victory Almohadin.

It did not take a century to establish the state Almohadin even weakened, and deny its successors to these pillars, and admitted lying.

www.manaraa.com

مقدمة:

شخصية محمد بن تومرت (485هـ-524هـ) مؤسس دولة الموحدين، من الشخصيات التي اختلفت حولها المصادر، في طبيعة مذهبها العقدي ومشروعها السياسي، واستمرار التساؤل حول دعوة ابن تومرت ودولته كان وراء إعادة النظر في العقيدة والسياسة في دولة ابن تومرت التي أطاحت بدولة المرابطين، ولعل هذه الإطاحة كانت عاملا في تباين مواقف المؤرخين قدامى ومعاصرين من شخص ابن تومرت بين مدح وتمجيد، وقدح واتهام.

وفي مقالنا هذا نعتمد مجموعة من المصادر المختلفة في الولاء لابن تومرت والبراء منه، ويأتي على رأسها كتاب "أخبار المهدي ابن تومرت وبداية دولة الموحدين" ويعد هذا المصدر على رأس المصادر من حيث الأهمية، لأن صاحبه أبا بكر بن علي الصنهاجي، المعروف بالبيذق، كان أحد تلامذة المهدي بن تومرت، وأحد منفذي مشروعه السياسي، ولذلك كان أقرب الناس إليه، وأكثرهم معرفة به وبدعوته و نصرة لمشروع دولته، وما يدل على أهميته؛ اهتمام المؤرخين به، واعتمادهم عليه، ومن الأمثلة على ذلك؛ ابن القطان صاحب "نظم الجمان" و هو المصدر الآخر في موالاة ابن تومرت .

وقبل هذا وذاك فقد خلّف لنا المهدي ابن تومرت كتابين، أولهما يضم مبادئه، ونظرياته في الأصول، وفي الإمامة، وفي التوحيد والعلم، وهو أهم الكتابين، وهو المشهور بـ (أعز ما يطلب)، والثاني كتاب " الموطأ " أو " موطأ الإمام المهدي "،وقد وضعه المهدي في علم الفروع من عبادات والمعاملات والحدود، على مثل موطأ الإمام مالك.وهو ما نقله عبد المؤمن بن علي من تعاليق المهدي وآرائه الفقهية. تكلم في كتابه أعز ما يطلب في مسائل عقدية كلامية وأخرى فرعية، واتبع تدرجا مقصودا يخدم مشروعه السياسي، ففي نصفه الأول تكلم عن العلم والجهل، ثم عن الأصل والفرع، ثم عن اللفظ والدلالة، وعن أنواع الخبر، وعن الشريعة والقياس، وعن العموم والخصوص، أما في النصف الثاني فشرع في مسائل التوحيد والإمامة وأصحاب الفتن والمبطلين والمجسمين الطائفة المقاتلة على الحق، والمهدي، والجهاد،في المقابل اعتمدت مصادر أبعد ما تكون عن المهدي مكانا وزمانا ومذهبا، تنظر إلى ابن تومرت نظرة مختلفة، وهذه المصادر القريبة والبعيدة تسعفنا في إعطاء تصوراً قريباً إلى الحقيقة حول هذه الشخصية التي اختلفت حولها الكتابات.

فما هي المعالم العقدية ومظاهرها السياسية لرؤية ابن تومرت؟

1-التوحيد شعار للدولة:

التوحيد القاسم المشترك بين كل الفرق الإسلامية والديانات السماوية، إلا أنّ الرؤى في توحيد الله تعالى أبانت على اختلافات كلامية عقدية بينها، كما أشار إلى ذلك مؤلفو كتب الفرق والملل والنحل، فبرز ابن تومرت في علم الكلام ومسائل العقيدة، والخوض فيها بأساليب المتكلمين، فكان متكلماً، متشبعاً بفكر ومناهج الأشاعرة الكلامية، يصفه صاحب المعجب قائلاً: كان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل، إلا في إثبات الصفات فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها.[1]

ويصفه ابن خلدون بأنه من أدخل الأشعرية إلى المغرب، وإن له في طريقته الأشعرية إمامة وقدم راسخة[2] إلا أن هذه الأشعرية لم تكن خالصة بمزجها بشيء من الخارجية والشيعية حسبما يعلم ذلك بإمعان النظر في أقواله

www.manaraa.com

وأحواله وأحوال خلفائه من بعده ومن ذلك الوقت أقبل علماء المغرب على تعاطي مذهب الأشعري وتقريره وتحريره درسا وتأليفا إلى الآن.[3]

فكان ابن تومرت هو السبب في إدخال العقيدة الأشعرية في بلاد المغرب، فعبّر السلفيون بامتعاض ومرارة على ما أحدثه ابن تومرت على بلاد المغرب، التي كانت قبل ذلك سنية سلفية، وهذا على حد وصف الذهبي[4]فتوحيد ابن تومرت ممزوج بمعتقدات أهل الفرق المختلفة!

وجعل ابن تومرت التوحيد في كتابه " أعزُّ مَا يُطلَب " تحت عنوان "فضل التوحيد ووجوبه وأنه أول ما يجب تحصيله" وأورد في هذا الفصل مجموعة من الأحاديث النبوية، ويقول في ذلك : إن العبادة لا تصح إلا بالإيمان والإخلاص، والإيمان والإخلاص بالعلم، والعلم بالطلب، والطلب بالإرادة، والإرادة بالرغبة والرهبة، والرغبة والرهبة بالوعد والوعيد، والوعد والوعيد بالشرع، والشرع بصدق الرسول، وصدق الرسول بظهور المعجزة، وظهور المعجزة بإذن الله سبحانه[5] من خلال هذا المدخل يوظف ابن تومرت منهج المتكلمين في الخوض في مسائل التوحيد، ويوظف أسلوب الربط بين العبادة وما تتطلبه من إخلاص وعلم واعتقاد بالوعد والوعيد، وصدق الرسالة، والمعجزة، وهو في ذلك على نهج أساتذته الأشاعرة، مع استعارات من فكر المعتزلة.

ويذكر ابن القطان في " نُظُمُ الجُمَان " أن ابن تومرت فرض عليهم قراءة حزب واحد في كل يوم إثر صلاة الصبح-بعد حزب القرآن-ويشمل هذا الورد، عقيدة ابن تومرت، وتشتمل على معرفة الله تعالى، والعلم بحقيقة القضاء والقدر، والإيمان والإسلام والصفات، وما يجب لله تعالى وما يستحيل ويجوز عليه، والإيمان بما أخبر به النبي ص وملائكته وسلم بما طريقه الإخبار، بما أعلمه الله تعالى، من غيبه، ولمع من أصول الدين، ومعرفة المهدي، وأنه الإمام، ووجوب الإمامة. إنّ هذا الحزب يجمل لنا معتقد ابن تومرت فإلى جانب مسائل الإيمان بالله تعالى، والقضاء والقدر، يذكر الإيمان بالمهدي، وبيان صفاته، ووجوب الإمامة، وأنّه الإمام[6]. وهذا يبين على أنه سيعلن نفسه إماماً مهدياً يحمل لواء تغيير الأوضاع " الفاسدة "

إنّ تخصيص ابن تومرت دولته باسم " التوحيد " للتعريض بالمرابطين على أنهم ليسوا على التوحيد، فرماهم بكل الأوصاف التي تخرجهم من التوحيد، ويركز ابن تومرت في آرائه التوحيدية على مسألة تكاد تكون محور عقيدته، ومنطلق دعوته،ومرتكز اتهامه لخصومه، ألا وهي مسألة تنزيه الباري سبحانه وتعالى، فيقول: العقل يعلم وجود الباري سبحانه، والإنسان يعلم وجود خالقه[7] والمخلوق يستحيل أن يكون خالقا، ومنه فالخالق لا يشبه المخلوق[8]، وركز ابن تومرت على مسألة التنزيه، والبعد عن التشبيه إلى أن وصل إلى حد التعطيل، وهو ما يبين التأثر بعقيدة الاعتزال التي غالت بالتوحيد ، وهو ما يسميه جولد سيهر بـ" الاستعارة"[9]وركزت عليه في عقديتها، يصف لنا الشهرستاني المعتزلة بقوله: فالمعتزلة غلوا في التوحيد بزعمهم حتى وصلوا إلى التعطيل بنفي الصفات. والمشبهة قصروا حتى وصفوا الخالق بصفات الأجسام[10] فكان أبو عبد الله محمد بن تومرت على مذهب المعتزلة في نفي الصفات[11].ويستطرد الشهرستاني في وصف المعتزلة: "واتفقوا على نفي رؤية الله تعالى بالأبصار في دار القرار، ونفي التشبيه عنهم نكل وجه، جهة ومكاناً وصورة وجسما ًوتحيزاً وانتقالا وزوالا وتغيراً وتأثراً، وأوجبوا

www.manaraa.com

تأويل الآيات المتشابهة فيها، وسموا هذا النمط " توحيداً"، هذا المعتقد الاعتزالي كان يشير إليه ابن تومرت حين يتحدث عن الاعتزال، فما هو السبب الذي نحا بابن تومرت هذا المنحى؟

لقد لبس ابن تومرت لباس المعتزلة في مسألة التوحيد، وتخلى عن رؤية الأشاعرة، لإدراكه ما كان عليه المرابطون من عدم الخوض في أمور العقيدة، والاكتفاء بالنظر البسيط فيها، وأكب ابن تومرت يتهم المرابطين بالمجسمة والمشبهة، وما أنكر الأشاعرة قبله عقيدة المرابطين، بل إن الدولة المرابطية عرفت أسماءً خاضت في علم الكلام، كان لها دورٌ في التأسيس والتنظير للدولة، أمثال أبي بكر الحضرمي(ت489)، الذي يقول فيه المقّري: والمراد بهذا أوّل من أدخل علوم الاعتقاد إلى المغرب الأقصى، فلما توجه أبو بكر بن عمر إلى الصحراء حمّله وولاه القضاء، فلما مات، خلفه أبو الحجاج يوسف في علوم الاعتقادات، وغلب عليه الزهد؛ وله أرجوزة صغرى في علم الاعتقاد، قرأها عليه القاضي أبو الفضل عياض[12] ، كما كان أبو عمران الفاسي، قد أخذ علم الكلام في رحلته إلى المشرق، وهؤلاء العلماء تجنبوا الخوض في هذه المسائل، وما اتهموا المرابطين بشيء، ما يدلّ على أنّ ما قام به ابن تومرت من اتهام المرابطين كان مخطط له من اليوم الأوّل في رحلته إلى المشرق.

فحمل ابن تومرت شعار التوحيد، وسعى إلى التنزيه حتى وجد نفسه في دائرة المعتزلة والتشيع. فسمى الدولة باسم التوحيد، وأشهر السلاح باسم الجهاد تحت هذه الراية، متهما المرابطين بالكفر والضلال والمروق من الدين، وشرع ابن تومرت في بيان عقيدته، التي تتراوح بين الفكر الاعتزالي والفكر الشيعي[13]حين تصبح الإمامة أصل من أصول الدين، والعصمة صفة من صفات الإمام، فلماذا انطلق ابن تومرت في مشروعه السياسي من عقيدة التوحيد، ومنهج المتكلمين؟ ألم يكن المرابطون موحدين؟

محمد ابن تومرت في رحلته العلمية في المغرب والأندلس أدرك مجالات اهتمام فقهاء المرابطين ومناهجهم، فعلماء المرابطين كان أكثر اهتمامهم بالمسائل الفرعية، وعدم الخوض في مسائل التوحيد، وكانوا يرجعون في فتاويهم لأقوال سلفهم من المالكية، ولا يعملون على الاجتهاد بالرجوع إلى الكتاب والسنة[14] فكانت هذه نقطة الضعف التي ارتكز عليها ابن تومرت.

وقد واجه ابن رشد الفقيه الفيلسوف هذا الفكر الجديد من خلال نقد معالمه من رجال الأشاعرة كالإمام الغزالي، فكان يعارض ابن تومرت ورجال الدولة الموحدية، ببيان ما جناه علم الكلام على أهل المغرب من فساد، فيصف تأثيرهم (أي المتكلمين) : مزقوا الشرع، وفرقوا الناس كل تفريق.[15]

2-الإمامة أصل الدين وأساس الدولة:

ويُعد باب الإمامة من أهم أبواب "أعز ما يطلب"، لما يتضمنه من بيان معتقد ابن تومرت السياسي، فيقول بوجوب اعتقاد الامامة على الكافة، ويعتقد في كونها ركن من أركان الدين، وعمدة من عمد الشريعة، لا يصح قيام الحق في الدنيا إلا باعتقاد الإمامة[16] .

ومصطلح "الإمامة" مصطلح اختلفت الأمة فيه اختلافاً كبيراً، إذ لم تُرَقْ دماء بين المسلمين أكثر من الدماء التي أريقت حول موضوع الإمامة، ومن إشكالاتها: هل تثبت بالاختيار والاتفاق، أو تثبت بالنص والتعيين، هل هي واجبة شرعاً أو عقلاً[17] فكان أهل السنة والخوارج على قول الاختيار والشورى مع وجود

www.manaraa.com

اختلافات بينهم، أمّا رأي النص والتعيين فأخذ به الشيعة، واستعمال مصطلح الإمام في السلطة السياسية أكثر ما نجده عند الخوارج والشيعة، فالإمامة هي شعار الدعوة الشيعية، الديني والسياسي، وأنها تخص آل البيت دون سواهم، وعلى كر العصور. وهنا نتساءل عن إمامة ابن تومرت،فقد تمسّك بنظرية الإمامة،فهل كان –كما رأى البعض–مستقلا، بعيداً عن الدعوة الشيعية، وممثلا لدعوة خاصة؟ وإن كان في نفس الوقت يحرص على أن ينتسب إلى آل البيت،حتى تتوفر فيه شرعية الإمامة[18]. أم كان يدعو إلى إمامة وفق الفكر الشيعي؟ وهنا نعود إلى نص ابن تومرت في الامامة.

«هذا باب في العلم، وهو وجوب اعتقاد الإمامة على الكافة،وهي ركن من أركان الدين، وعمدة من عمد الشريعة،ولا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمامة في كل زمان من الأزمان إلى أن تقوم الساعة. ما من زمان إلا وفيه إمام لله قائم بالحق في أرضه من عاد إلى نوح،ومن بعده إلى ابراهيم... »[19]

من خلال ما تقدم، نجد أن ابن تومرت يعتقد في الإمامة ركناً من أركان الدين، لا يقوم إلا بالاعتقاد به، ويعتقد بأن هذا الإمام لا يكون إلا معصوما من الباطل والضلال والظلم والجهل، ويعتقد بالامام المهدي، هذه العناصر الثلاث لا تجتمع في تاريخ الفكر الإسلامي إلا في مذهب واحد وهو المذهب الشيعي.

في حين أنّ الإمامة عند غير الشيعة هي ليست من أصول الدين. فهي موضوعة لحفظ الدين وسياسة الدنيا، يعرفها إمام الحرمين بقوله: الإمامة رياسة تامة، وزعامة عامة، تتعلق بالخاصة والعامة، في مهمات الدين والدنيا. مهمتها حفظ الحوزة، ورعاية الرعية، وإقامة الدعوة بالحجة والسيف، وكف الخيف والحيف، والانتصاف للمظلومين من الظالمين، واستيفاء الحقوق من الممتنعين، وإيفاؤها على المستحقين[20]

ويقول الماوردي: الإمامة أصلا عليه استقرت قواعد الملة، وانتظمت به مصالح الأمة حتى استثبتت بها الأمور العامة، وصدرت عنها الولايات الخاصة، فلزم تقديم حكمها على كل حكم سلطاني، ووجب ذكر ما اختص بنظرها على كل نظر ديني؛ لترتيب أحكام الولايات على نسق متناسب الأقسام، متشاكل الأحكام[21] فهي: موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع وإن شذ عنهم الأصم[22]

فالإمامة هي أشرف وأعلى العبادات إذا اقترنت بالعدل[23]وهي في نظر غير الشيعة ليست من أصول الدين، بل هي من مقتضيات حفظ مصالح الناس. وهي من أعظم الأعمال لما ينتج عنها من انتشار الأمن، واتساع الرخاء، وانتهاء الخوف والخصومات، وابن تومرت في عقيدة الإمام ينتحل مذهب الشيعة، ليهيئ لادعائه العصمة والمهدوية.

3– المهدوية والعصمة في الإمام:

إلى جانب مشاركة ابن تومرت الشيعة في الاعتقاد في أصولية الإمامة، فهو يدّعي أنّه الإمام المعصوم، والمهدي المعلوم، ففي سنة 516 قام ابن تومرت خطيباً في أصحابه وأعلن إليهم أنه المهدي المنتظر في خطبة قصيرة ينقل إلينا نصها ابن القطان في " نظم الجمان " الحمد لله الفعال لما يريد، القاضي بما يشاء،لاراد لأمره، ولا معقب لحكمه، وصلى الله على سيدنا رسول الله، المبشر بالإمام المهدي، الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلا، كما ملئت

www.manaraa.com

جوراً وظلماً، يبعثه الله إذا نُسخ الحق بالباطل وأزيل العدل بالجور. مكانه المغرب الأقصى منبته وزمانه آخر الزمان، واسمه اسم النبي عليه الصلاة والسلام، ونسبه نسب النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام المقربون عليه وسلم، وقد ظهر جور الأمراء، وامتلأت الأرض بالفساد، وهذا آخر الزمان، والإسم الاسم والنسب النسب، والفعل الفعل "[24]وتمت مبايعته من قِبل أنصاره[25] .

على أنه إذا كان المرابطون، أو كما ينعتهم ابن تومرت، طائفة المبطلين من الملثمين والمجسمين،كانوا يتصفون بما يرميهم به من العيوب والمثالب التي يستحقون من أجلها اللعنات، والتي تستوجب بُغضهم ومعاداتهم ومجاهدتهم، فإنهنا كطائفة أخرى بشر الرسول بظهورها، وهي التي تقاتل على الحق وتقاتل عنه،وتقوم به إلى آخر الزمان، وأن هذه الطائفة تقوم بأمر الله،لا يضرها من خذلها أو خالفها، وأنها ظاهرة على من عاداها إلى يوم القيامة، وأنها تقاتل على أمر الله وتقهر عدوها إلى قيام الساعة، وأنها تقاتل على الحق حتى تجتمع مع عيسى بن مريم، وحتى يقاتل آخرهم الدجال، وأن الله يفتح الدنيا كلها لأهل الغرب، وأخيراً أن هذه الطائفة ينصرها الله حتى تقوم الساعة. وبالرغم من أن ابن تومرت لا يقول لنا من هي هذه الطائفة بصريح العبارة،فإنه من الواضح أنه يعني بها طائفة الإمام المعصوم، والمهدي المعلوم، أو بالأحري طائفته الخاصة، طائفة الموحدين، وهو يحاول هنا كعادته، أن يؤيد كل أقواله ونبوءاته بطائفة من الأحاديث.[26]

وبهذا فهو يقول بأهم المعتقدات الشيعية، وعمل على البسط قولا وكتابة عن هذه المعتقدات، فتكلم ابن تومرت عن وجوب الاعتقاد في المهدي المنتظر، وصفات المهدي، وكُفر من لم يعتقد به، ووجوب السمع والطاعة له، والأعمال التي يقوم بها، وما يجب له من التعزيز والتوقير، وأن الهجرة إليه واجبة لا يحول بينها وبين أحد من المسلمين أهل ولا ولد ولا مال، وأن من سمع بأمره وجبت عليه الهجرة. ولا عذر له بوجه من الوجوه، ويُكفّر من لم يصل إليه ولم يطعه، وعلامة المؤمن وما يجب على المؤمن فعله، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذكر لهم علامة المنافقين وبيّنها لهم بأوضح بيان، وجعل القتل في ثمانية عشر صنفا كالكذب والمداهنة[27]

وأخذ يشوق إلى المهدي، ويروي أحاديث فيه، فلما توثّق منهم قال: أنا هو، وأنا محمد بن عبد الله، وساق نسبا له إلى علي، فبايعوه، وألف لهم كتاب "أعز ما يطلب"[28]ويذكر ابن القطان أن لقب المهدي، لقّبه به العشرة من أصحابه ساعة مبايعتهم له، ويقول: وقفت على نسخة صك كتبه رضي الله تعالى عنه للفقيه القاضي علي بن أبي الحسن الجذامي، أوله بعد البسملة والصلاة: أقول وأنا محمد بن عبد الله بن تومرت وأنا مهدي آخر الزمان[29]فادعى ابن تومرت المهدوية، وسلم بذلك أصحابه، وسمى البيذق كتابه"أخبار المهدي"

وصرح بدعوى العصمة لنفسه، وأنه المهدي المعصوم. وروى في ذلك أحاديث كثيرة،حتى استقر عندهم أنه المهدي، وبسط يده فبايعوه على ذلك، وقال: أبايعكم على ما بايع عليه أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم–رسول الله. [30]

ويعتقد ابن تومرت في الإمام المعصوم، ويرى أن لا يكون الإمام إلا معصوما، ويفصل في صفات الإمام المعصوم[31] فيقول: ولا يكون الإمام إلا معصوماً من الباطل ليهدم الباطل، لأن الباطل لا يهدم الباطل، وأن يكون معصوماً من الضلال، لأن الضلال لا يهدم الضلال...وأن يكون معصوماً من الجور لأن الجائر لا يهدم

www.manaraa.com

الجور بل يثبته، وأن يكون معصوماً من البدع، لأن المبتدع لا يهدم الكذب بل يثبته، وأن يكون معصوماً من العمل بالجهل، لأن الجاهل لا يهدم الجهل، وأن يكون معصوماً من الباطل لأن المبطل، لا يهدم الباطل، كما لا تدفع النجاسة بالنجاسة، وكما لا تدفع الظلمة بالظلمة،كذلك لا يدفع الفساد بالفساد، ولا يدفع الباطل بالباطل، وإنما يدفع بضده الذي هو الحق،لا يدفع الشيء إلا بضده، ولا تدفع الظلمة إلا بالنور، ولا يدفع الضلال إلا بالهدى، ولا يدفع الجور إلا بالعدل، ولا تدفع المعصية إلا بالطاعة، ولا يدفع الاختلاف إلا بالاتفاق، ولا يصح الاتفاق إلا باستناد الأمور إلى أولي الأمر، وهو الإمام المعصوم من الباطل والظلم[32].

وأوجب على أتباعه الاعتقاد في الإمام المعصوم، والإمام المعلوم، وذلك وفقاً لرأي الشيعة. فهم يعتبرون، حسبما يصوغ لنا رأيهم الشهرستاني" وثبوت عصمة الأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر "[33] ويبين ابن تومرت أنه متى ضُيعَ أمر الإمام، أو عُصي أو نوزع أو خولف أو أُهمل أو لم يُرجع إليه، أو استبد دونه اختل الأمر[34]

وكان من رأيه القول بعصمة الإمام علي على رأي الإمامية من الشيعة[35]وقال ابن الخطيب في رقما لحل لقالوا كان محمد بن تومرت يزعم أنه مأمور بنو عمن الوحي والإله امو ينكر كتب الرأي والتقليد وله باع في علم الكلام وغلبت عليه نزعة خارجية وكان ينتحل القضايا الإستقبالية ويشير إلى الكوائن الآتية[36]

وقف ابن خلدون موقفا مؤيدا لابن تومرت في عقيدته وفكره، ولم ينكر عليه شيئا سوى ادعاءه العصمة، يعبر عن ذلك بقوله: ولمتحفظ عنه فلتة في البدعة إلا ما كان من وفاقه الإمامة من الشيعة في القول بالإمام المعصوم[37]

4- الخارجية واستباحة الدماء:

لقد كان مظهر العنف ظاهراً في شخصية ابن تومرت منذ حمله راية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر-في طريق عودته من المشرق، انطلاقا من مصر إلى أن وصل المغرب،ففي فاس أمر أصحابه السبعة أن يحملوا معه "مقارع" عصيا ويكسروا كل ما وجدوه في الحوانيت من أدوت العزف واللهو[38] وفي هذا افتئات على دور السلطان، يقول البيذق : لما دخلنا تلمسان وجد بها عروسا تُزف لبعلها، وهي راكبة على سرج واللهو والمنكر أمامها، فكسر الدفوف واللهو وغيَر المنكر، وأنزلها عن السرج، ومارس القتل والتنكيل باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد حدث أنه قتل أشياخاً من فاس، وقطع رؤوسهم وعلقها[39] استعمال القوة في دعوته، يذكر البيدق أنه أثناء دعوته للقبائل التي دعاها، فأمر بقتال القبائل التي اعترضت دعوته، ومنها قبيلة بني محمود التي قاتلها بقبيلة بني واكاس.[40]

واستغل ابن تومرت أوضاع المرابطين الداخلية، ومعاركهم الخارجية، في إبراز دعوته، ففيسنة514 كانت وقعة اهزم فيها المسلمون وهي وقعة قتندة، قال ابن القطان: مات فيها نحو عشرين ألفا وفيها حل ابن تومرت المتلقب بالمهدي بأغمات،محرضا على الخروج على السلطان وتفريق الكلمة المنتظمة.[41]

لم يتوقف ابن تومرت عند هذا الحد، فقد رمى المرابطين بكل كبيرة،، فعكف –في عدة أبواب من كتابه-يتناول مثال بالمرابطين،وتحريمطاعتهم،والحض على جهادهم،،منها أنهم مجسمة كفرة، فحرم معونتهم، ووجوب مخالفتهم

www.manaraa.com

وجهادهم، وتحريم طاعتهم، مستندا في ذلك على مجموعة من الآيات القرآنية ومن الأحاديث النبوية التي أسقطها عليهم [42].

وهذا ما جعل المرابطين يصفونه بالخارجي،يذكر ابن القطان في كتابه "نظم الجمان" مآخذ المرابطين على ابن تومرت، قال: قالوا: هذا رجل يكفر الناس بالذنوب، ويقول إنه من تاب لا يلزمه قضاء الصلاة والصيام، ويرد المطلقة ثلاثا إلى زوجها، وطرح مذاهب العلماء، وخرج عن الإجماع وكفّر المسلمين واستحل أموالهم، وحريمهم، فجعل أموال المسلمين غنيمة تخمس وقام على الأمراء ونزع يده من طاعتهم، وقد أجمع العلماء على تحريم القيام عليهم ووجوب طاعتهم، وكان مؤرخ الموحدين ابن القطان قد أنكر هذه التهم، بعد أن عرضها[43]إلا أنه وفي موقع آخر يقر بالخروج: فيقول نقلا عن ابن الراعي، أنه – أي ابن تومرت– لما كان في أغمات، وظهر على علمائها خلع مبايعة علي بن يوسف عن أعناق تابعيه وأصحابه، وكان بعضهم يبرح في المساجد.

في أول لقاء لابن تومرت بالأمير علي بن يوسف، لم يحترم مراسيم اللقاء، ولما طُلِب منه ذلك أنكر الاعتراف بالأمير، ووصلت به الجرأة إلى الإهانة، حين قال: أين الأمير؟ إنما أرى جواري منقبات. ودار حوار بينهما، فقال ابن تومرت للأمير: الخلافة لله وليست لك[44]وفي هذا يقر بعدم الاعتراف بحكم الأمير علي بن يوسف،

واستحل ابن تومرت بهذا المعتقد الخارجي، القائم على التكفير، دماء ألوف مؤلفة من أهل المغرب المالكية الذين كانوا على معتقد أهل السنة واتهموهم زوراً وبهتاناً أنهم مشبهة مجسمة ولم يكونوا من أهل هذه المقالة.[45]

قال اليسع في 'تاريخه': ... فشرع أتباعه يغيرون ويقتلون، وكثروا وقووا، ثم غدر بأهل تينملل الذين آووه، وأمر خواصه، فوضعوا فيهم السيف، فقال له الفقيه الإفريقي أحد العشرة من خواصه: ما هذا؟! قوم أكرمونا وأنزلونا نقتلهم!! فقال لأصحابه: هذا شك في عصمتي، فاقتلوه فقتل... وكل ما أذكره من حال المصامدة، فقد شاهدته، أو أخذته متواترا، وكان في وصيته إلى قومه إذا ظفروا بمرابط أو تلمساني أن يحرقوه[46]

يقول البيدق: كان البشير يخرج المخالفين والمنافقين والخبثاء من الموحدين، وإثر ذلك قُتل كثيرون باتهامهم بالنفاق[47]

ودعا الناس إلى سلوك هذه الطريقة وجزم بتضليل من خالفها بل بتكفيره وسمى أتباعه الموحدين تعريضا بأن من خالف طريقته ليس بموحد وجعل ذلك ذريعة إلى الانتزاء على ملك المغرب[48]

إنّ هذه البداية الدموية لدولة الموحدين كانت نذير شؤم على نهايتها الخطيرة، فقد وقع هرج ومرج أثناء الصراع القائم بن أحفاد عبد المؤمن، فسالت دماء كثيرة، واعترف خلفاؤها بالادعاءات الكاذبة لمؤسس الدولة ابن تومرت[49]

www.manaraa.com

خاتمة:

أقام محمد بن تومرت دولة، تلقبت بلقب الخلافة، وقطعت الدعوة لبني العباس من على المنابر [50]دولة تحكمها العقيدة أو ما يصطلح عليه بالدولة الدينية، تحكمها أسس عقدية دينية، تجتمع فيها عقائد من فرق مختلفة سنية وشيعية وخارجية، إلا أن النزعة الشيعية تكاد تكون الأبرز، حيث الاعتقاد في كون الإمامة أصل من أصول الديانة، وعصمة الإمام، وادعاء المهدوية، وهذه المعتقدات نجدها عند أئمة الشيعة، وكأنه يستنسخ التجربة الفاطمية في كثير من مظاهرها ومبادئها.

وكان الجماعة أو أصحابه العشرة الأوائل هم أعضاء وزارته، يبحث معهم جلائل الأمور، وعندئذ يخلو به مولا يحضر معه أحد سواهم. فإذا جرى البحث في أمور أقل أهمية، حضر الخمسون من الصحب في هيئة جمعية استشارية، وإذا جرى البحث في الشئون العادية حضر معهم السبعون[51]

ونستطيع القول أن ابن تومرت طبق مبدأ ماكيفلي القائم على "الغاية تبرر الوسيلة" في تحقيق السيطرة، فاستخدم كل المبادئ والمهارات للتأثير في الناس وتحقيق الانتصار على الخصوم. ولعل من أهم هذه المبادئ إدعاء الفضيلة للسيطرة والتصنع، والمشورة عند الضرورة، ووظف العلم والدهاء وخلط الحق بالباطل، فدولة المرابطين عرفت أسماءً من علماء الكلام مثل منظرها الحضرمي أبي بكر المرادي، وأبي عمران الفاسي الذي نال نصيبا من علم الكلام، هؤلاء الذين ساهموا في بنائها، ولم ينقضوا عهدها.

- بالنظر إلى هذه المعتقدات (الإمامة أصل الدين، العصمة، الانتماء إلى آل البيت، المهدي المنتظر...) ومقارنتها بمعتقدات الفرق الأخرى، نجد أن ابن تومرت أراد أن يتتبع خطى مهدي العبيديين، وأن يبعث أهم العناصر في الفكر الشيعي دون الإعلان صراحة عن التشيع، واستطاعت هذه الأفكار أن تجد لها طريقا ممهدا في مصمودة وبلاد السوس، إلا أن هذا الحكم لا يمكن أن يتم إسقاطه على كل الدولة الموحدية، بأن تنعت بالدولة الشيعية، وذلك لمواقفهم من هذه المعتقدات

-إن قراءة سيرة المهدي ابن تومرت، وأفكاره المنبثة في كتبه، وأعماله وأقواله، تبين أن هذه الشخصية تمكنت من تحقيق مشروعها السياسي بعد تخطيط دقيق، لم يترك مجالا للمصادفة، فكان النجاح لعدة اعتبارات ومهارات في شخصيته تجمع بين الدهاء والحكمة، والمعرفةبالعقائد والسير، وانتحال عقائد مختلفة للتأثير، خاصة المعتقد الشيعي، الذي يظهر لنا جلياً في الاعتقاد بالإمامة على أنها أصل من أصول الدين الاعتقاد بها واجب، والإمام من آل البيت، ولا يكون إلا معصوم من الخطإ، وهو الإمام المهدي المنتظر ومن لم يؤمن بذلك فهو كافر، كما أخذ عن الشيعة والمعتزلة عقيدة التعطيل باسم التنزيه، فوظف هذه العقيدة في تقويض سلطان المرابطين، متهماً إياهم بالتجسيم.

عمِل في بداية المطاف على بث هذه الأفكار في قبيلة "مصمودة " فهيّأها لتبني هذا الفكر—خاصة وأنّ المستوى الثقافي المحدود في مسائل العقيدة كان محدوداً— حتى في فئات أهل العلم-، وهذا الفراغ في الوعي الديني والثقافي، ساعد على انتشار هذا الفكر الدخيل بسرعة، فاشرأبت أعناقهم للدفاع عنه، وامتشقوا السيوف للقتال من أجله،

www.manaraa.com

فادعى ابن تومرت أنّه من آل البيت، وأعلن نفسه الإمام المهدي المعصوم، مغتنماً فرصة ضعف المرابطين، وتعدد جبهات قتالهم في الاندلس بين الثورات الداخلية، والتهديدات النصرانية الشمالية.

إضافة إلى كل ذلك فقد كانت لابن تومرات مهارات وملكات مختلفة وظفها إلى جانب العقيدة،فقد لبس لباس الزهد، وتحكم في مهارات اللغة والاتصال والدعاية، واختيار الزمان والمكان والعنصر البشري ، وهي كلها عناصر ساهمت في تحقيق ابن تومرت لهدفه السياسي، كما تجتمع جل هذه العناصر في تجارب الهيمنة والسيطرة عبر تاريخ الانسانية، فباتت قواعد مسطورة في كتب الفكر السياسي، وهذه العناصر المجتمعة لم تكن لتنجح لو لم تجد بيئة ثقافية مناسبةأهم خصائصها التركيز على الفروع دون الأصول.

وفي اعتقادي أن التطرف المرابطي في الفروع قابله تطرف أصولي تومرتي، ظهر في ادعاء العصمة والمهدوية، وهو الأمر الذي أنكره بعض خلفاء الموحدين من بعده، لعل هذا التطرف هو ما جعل هذه التجارب البعيدة عن قيم الحرية والعدالة لا تستمر في تاريخ الدول الإسلامية.

وكثيراً ما كانت البدايات في التاريخ تنبئ عن النهايات، والمقدمات عن النتائج، فلم يمض قرن من ظهور دولة الموحدين حتى تسرب إليها الضعف والهرج، فكثرت الدماء بين أفراد الأسرة الحاكمة، وألغوا كل ما ادعاه ابن تومرت من مهدوية وعصمة، كتب المأمون آخر المتنافسين على الحكم رسالة يقول فيها: ولتعلموا أنّ نبذنا الباطل، وأظهرنا الحق، وألا مهدي إلا عيسى بن مريم، وما سمي مهدياً إلا لأنه تكلم في المهد، وتلك بدعة قد أزلناها، والله يعيننا على القلادة التي تقلدناها. قد أزلنا لفظ العصمة عمن لا تثبت له العصمة، فلذلك أزلنا عنه رسمه، فتسقط وتمحى ولا تثبت، وقد كان سيدنا المنصور قد هم أن يصدع بما به الآن صدعنا، فلم يساعده أجله، وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة، فما الظن بمن لم يدر بأي يد يأخذ كتابه[52]

ترتكز سياسة ابن تومرت ارتكازاً وثيقاً على عقيدته الدينية، هذه العقيدة التي تباينت المواقف حولها، ومن خلال نظرة في تراث ابن تومرت تبين أنّ عقيدة ابن تومرت ترتكز على ثلاثة ركائز هي: التوحيد، الإمامة، والخروج. وظف هذه المرتكزات لتنفيذ مشروعه السياسي، فكيف ذلك؟

ركز ابن تومرت على مسألة التوحيد، فجعله شعاراً واسماً للدولة، هذا التوحيد الذي يرى فيه أنه يقوم على التنزيه للذات الإلهية، وهو يختلف عن توحيد المرابطين الذي يقوم على "التجسيم" –في نظره– موظفاً منهج المتكلمين، لكن ابن تومرت في تنزيهه تمادى إلى أن وصل إلى تنزيه فيه تعطيل، على طريقة المعتزلة.

وانطلق ابن تومرت من منطلق التوحيد لإدراكه تجنب علماء المرابطين الخوض في مسائل التوحيد بمنهج المتكلمين، فأراد أن يهدم الدولة من أسس الاعتقاد التي لم يعترض عليها أيٌّ من علماء المتكلمين الأشاعرة الذين سبقوه.

الركيزة الثانية في عقيدة ابن تومرت هي القول بأن الإمامة أصل من أصول الدين، وأن الإمام معصوم، وادعى إثر ذلك أنه الإمام المعصوم والمهدي المعلوم، وفي هذه المعتقدات والادعاءات يتبين أن ابن تومرت كان يعتنق عقيدة الشيعة، ويتمثل تجاربهم التاريخية، واستطاع أن يؤثر في أوساط السذج الحانقين على دولة المرابطين خاصة من قبيلة مصمودة، فكون منهم جيشاً حمل لواء الخروج عن السلطان.

www.manaraa.com

الركيزة الثالثة في عقيدة ابن تومرت هي الخروج عن السلطان القائم، والانحلال من بيعته، وحمل السلاح ضده، فاستغل ابن تومرت تعدد الجبهات التي كان المرابطون يقاتلون فيها، فقاد جيشه في معارك دموية ضد المرابطين، انتهت –بعد موته– بانتصار الموحدين.

ولم يمض قرن على تأسيس دولة الموحدين حتى دبّ الضعف فيها، وتنكر خلفاؤها لهذه المرتكزت، واعترفوا بكذبها.

www.manaraa.com

الهوامش:

[1]–المراكشي، عبد الواحد بن علي التميمي، محيي الدين (ت 647هـ)**المعجب في تلخيص أخبار المغرب** من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تح :الدكتور صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا–بيروت، ط1، 1426هـ – 2006م، ص: 141.

[2]–ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت 808هـ) **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تح: خليل شحادة، دار الفكر،بيروت،ط2، 1408 هـ – 1988 ، م6/ 167.

[3]–عنان، محمد عبد الله (ت 1406هـ) **دولة الإسلام في الأندلس**،مكتبة الخانجي،القاهرة، ط2، 1411 هـ – 1990 م، 213/3.

[4]–الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (ت 748هـ) **العرش**، تح محمد بن خليفة بن علي التميمي عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة،المملكة العربية السعودية، ط2، 1424هـ/2003 م: 66/1.

[5]–ابن تومرت، **أعز ما يطلب**، تح: عمار طالب، إصدار وزارة الثقافة، مطبعة الجيش، الجزائر، 2007، ص: 214.

[6]–ابن القطان، أبو محمد حسن بن علي، المراكشي الكتامي (ق7هـ) **نظم الجمان في ترتيب أخبار ما سلف من الزمان**، تح: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1990، نظم الجمان، ص:81

[7]–ابن تومرت، المصدر نفسه.

[8]–ابن تومرت،المصدرالسابق، ص: 216.

[9]–عنان، المرجع السابق، 313/3.

[10]–الشهرستاني،أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (ت 548هـ)، **الملل والنحل**، مؤسسة الحلبي، ص 18

[11]–ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد الحراني الحنبلي الدمشقي (ت 728هـ)شرح العقيدة الأصفهانية، تح، محمد بن رياض الأحمد،المكتبة العصرية، ط1بيروت، 1425هـ ، ص:23.

[12]– المقّري، شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى، أبو العباس المقري التلمساني (المتوفى: 1041هـ)أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تح: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد العظيم شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر–القاهرة،1358 هـ – 1939
161/3.

[13]– هناك قاسم مشترك كبير بين المعتزلة والشيعة في عقيدة الأسماء والصفات. انظر: الذهبي، العرش، 131/1.

[14]– ألّف ابن رشد الحفيد موسوعته الفقهية تحت عنوان بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ويدخل ضمن الفقه المقارن، وفتح باب الاجتهاد

[15]– علي أومليل، السلطة الثقافية والسلطة السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، بيروت 2011، ص: 208.

[16]– ابن تومرت، المصدر السابق، ص:229.

[17]– الشهرستاني، المصدر السابق، 26

[18]– عنان، المرجع السابق 206/3

[19]– ابن تومرت، المرج نفسه، 229.

[20]– الجويني، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد، أبو المعالي،ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين (ت 478هـ)**غياث الأمم في التياث الظلم**، تح :عبد العظيم الديب،مكتبةإمامالحرمين، ط2، ص: 22.

[21]– الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت 450هـ) **الأحكام السلطانية** دار الحديث،القاهرة، ص: 13.

[22]– الماوردي، المصدر نفسه.

[23]– الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت 505هـ)، تح: عبد الرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية – الكويت ، **فضائح الباطنية**، ص: 205.

www.manaraa.com

(24)– ابن سماك العاملي، الحلل الموشية، 78.

(25)– ابن القطان، ص:87.

(26)– المراكشي، المعجب، 141

(27)– ابن القطان، المصدر السابق، 81.

(28)–أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي، موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية،المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، النبلاء للكتاب، مراكش – المغرب74/7.

(29)–ابن القطان، المصدر السابق، ص 89.

(30)– المراكشي، المعجب، 141

(31)–ابن تومرت، اعز ما يطلب، ص: 229.

(32)– ابن تومرت، أعز ما يطلب، 229.

(33)– عنان، المرجع السابق 204/3

(34)– المصدرالسابق،اعز ما يطلب، ص: 230.

(35)–السلاوي شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري الدرعي الجعفري (المتوفى: 1315هـ)،الاستقص الأخباردول المغرب الأقصى، تح جعفر الناصري/ محمد الناصري،دار الكتاب – الدار البيضاء، 80/2.

(36)–السلاوي، الاستقصاء ، 95/2.

(37)–ابن خلدون، 305/6.

(38)–البيذق، أبو بكر بن علي الصنهاجي، دار المنصورة، الرباط، 1971، ص 23.

(39)–ذكره البيذق ص 24.

(40)–البيذق،ص: 32.

(41)–ابن عذاري المراكشي البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب308/1

(42)– عنان، المرجع السابق، 211/3

(43)– ابن القطان، نظم الجمان، 67.

(44)– البيذق ص: 27.

(45)–الذهبي، العرش: 66/1

(46)– أبو سهل المغراوي، السلف، ص77.

(47)– البيذق، أخبار المهدي، ص: 39

(48)– السلاوي، الاستقصاء 196/1

(49)– انظر مقدمة تحقيق كتاب نظم الجمان، 25.

(50)–المراكشي، المعجب، ص:71.

(51)– عنان، دولة الإسلام في الأندلس/ 195/3-197.

(52)– ابن عذارى، القسم الموحدي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985. ص: 286-287

www.manaraa.com